

## (بمناسبة رحيل المخرج الكبير انطوني مينغويلا)



محمد الأحمد

## دم العشاق مطر أحمر اللون



## «المريض الإنكليزي»

## قصيدة خالدة إلى الفن السابع



المتمخضة عن ملامح إنسانية مهمة تؤكد لها أسلوبية المخرج مينغيلا ورؤيته الغربية الجارحة والأخاذة بحق. «المريض الإنكليزي» ملحمة عريضة-شبهها الكثيرون بأجواء ملامح ديفيد لين وخصوصاً «لورانس العرب»- لا تتأطر داخل إطار سينمائي محدد كما لا تتغلق داخل اللعبة السينمائية المنتقاة، فالأسلوب السينمائي الذي نصادفه مفتوح على أي احتمال ممكن ومفاجيء: النظرة الإخراجية لا تسبق اللحظة السينمائية الشعرية، والموقف غير خاضع لمبدأ محدد. يبدأ الفيلم حين تبدأ اللقطة السينمائية التي لا تتوضع إلا عبر ما يرسم عليها، وكأن في ذلك تشبيهاً لمقولة مفادها أن السينما هي أولاً وأخيراً الحرية الإبداعية في تناول: لا تناقضات تلغي الفعل السينمائي الانسيابي للغة متهادية بغفوية نضرة، ولاتساؤلات تترك جسد العمل الفني أو تجعله يرتجف أو يعتكر، كما لاتوترات تمزق شفافية السيناريو وقلقه، بل إمعان في الوصف وإغراق في التفاصيل الفنية المبرزة لتفتحات الذات وثاياتها. عملية



«يخلق الفيلم البديع «المريض الإنكليزي» (The English Patient) للمخرج الراحل مؤخراً إنطوني مينغيلا خارج السرب الهوليوودي متحدياً الأعراف السائدة التي تسير الاستوديوهات الرئيسية (متروغولدين ماير، وارنر، يونيفرسال، بارامونت، كولومبيا، فوكس، وغيرها) منتعياً إلى سينما ملحمية تذكر كثيراً بأجواء ديفيد لين الفخمة (الحب الرومانسي، المصدر الأدبي، الحشود الضخمة، الديكورات الباهظة، إعادة إحياء التاريخ.. الخ). وهي عوامل أفاد منها المخرج البريطاني في ثالث أفلامه الروائية الطويلة حيث وفق باقتباسه الناجح لرواية الكاتب الكندي مايكل أونداتجي التي تحمل الاسم نفسه بعد أن تحمس سول زينتز لإنتاجها بمشاركة شركة «ميرماكس» المستقلة المملوكة من قبل الأخوين بوب وهاري وواينستين اللذين أكملوا تمويله بعد إنفاق كامل الميزانية المرصودة له، وهو في نهاية الأمر. بنفسه الملحمي وتنوع طروحاته وتوجه لغته السينمائية. يمثل أوفى صورة لسينما ضخمة المعطيات تكتنر كل الشروط والأولويات لتتوج بتسع أوسكار ذهبية (أفضل فيلم، أفضل مخرج، أفضل تصوير، أفضل مونتاج، أفضل إدارة فنية، أفضل تصميم أزياء، أفضل ممثلة مساعدة، أفضل موسيقى تصويرية وأفضل صوت) منضماً بذلك إلى الأفلام الخمسة التي حصلت على أكبر قدر من جوائز الأوسكار وهي: «بن هور» و«تايتانيك» (١١ أوسكار عامي ١٩٥٩) و«قصة الحي الغربي» (١٠ أوسكار عام ١٩٦١) و«جيجي» (١٩٥٨) و«الامبراطور الأخير» (١٩٨٨) وقد حصل كل منهما على تسعة أوسكار.

«المريض الإنكليزي» فيلم دخل تاريخ السينما من أوسع أبوابه يقص فيه المخرج مينغيلا بأسلوب «الFLASH باك» قصة حب كبير بين اريستقراطي أوروبي (رالف فاينز) وامرأة متزوجة (كريستين سكوت توماس) التقيا أثناء بعثة في الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية وذلك عبر الحكاية التي يرويها على مسامعنا مريض غامض مشوه الوجه يحتضر في دير إيطالي على مرأى من ممرضة وديعة (جوليت بينوش) تتعاطف معه متأثرة بما تسمعه من تلك الذاكرة الحزينة المثقلة بالهم والخيبة المشبعة بالم دفين وغائر: الفيلم مستوحى من التأثيرات النفسانية والاجتماعية التي تخلفها الحروب عادة، توججه علاقة حب عاصفة مزعومة تبدو حادة للغاية، بالإضافة إلى تصويره نوعاً من محاولة التطهير والتصالح مع الذات

من الحديث عن هذا كله أن نصل إلى دقائق اللحظة التي تتطلق منها شرارة القلب الموجعة والتي تقودنا لتلك البوابة المجهولة حيث تتوارى أسرارنا وخيبتنا وأوجاعنا الدائمة. ومن هنا تتأكد خيبة الذات وانكسار علاقة الحب التي تكاد تكون ببوحها الداخلي ورهافة انعكاسها في العيون الهائمة من أرقى خطوط الحب التي عثرت عليها الشاشة الكبيرة عبر تاريخها الطويل.

يقف وراء نقل رواية «المريض الإنكليزي» إلى الشاشة الكبيرة المنتج المثقف، الخبير والمختلف سول زينتز الذي كان نجم احتفال الأوسكار سنة فوز فيلمه بصعوده إلى خشبة المسرح مرتين: الأولى لنيل أوسكار إيرفينغ ج. ثالبيرغ الذي قدمه له مايكل دوغلاس احتفاء بتاريخه المحترم مشيراً إلى أن كأسه قد امتلأت، والثانية لاستلام أوسكار أفضل فيلم من آل باتشينو عن تحفته هذه منوها هذه المرة بأن تلك الكأس قد فاضت، وكعادته التي اشتهر بها حين اعتلائه المنصة وتحديدًا المرات الثلاث التي فازت فيها أعمال من إنتاجه بأوسكار أفضل فيلم خلال ٢٢ عاما وهي «طيران فوق عش الكوكو» (١٩٧٥) و «أماديوس» (١٩٨٤) و «المريض الإنكليزي» (١٩٩٦)، وجه زينتز تحيته المؤثرة لمنتجين كبار من أمثال: هال واليس، داريل زانوك ديفيد. و. سلزنريك، صامويل غولدوين، والت ديزني وهم على حد تعبيره يشاركونه أحقية الشعور بتلك اللحظة السماوية التي يصعب وصفها وإيجازها بمفردات قليلة، معترفاً بفضل الأخوين واينستين القائمين على شركة «ميراماكس» التي مولت فيلمه الذي كاد ألا يرى النور، ولم يفته إهداء



الإخراج في «المريض الإنكليزي» مفتوحة إلى حدود بعيدة، لا تؤمن بالشكل السينمائي السائد المستند إلى قواعد أساسية لا جدال فيها. فالمخرج مينغولا يتصرف كما يحلو له، بحرية تامة، بغفوية مطلقة، إذ لا مرجع له سوى الذات الإنسانية التي يمجدها، ولا نبع سوى العالم الداخلي الذي يحسه ويعيشه ويتامله، ولذلك نرى أن الفيلم يميل إلى الشعر واسع المطارف وعفوي الملامح أكثر مما يميل إلى السينما كعالم مغلق وكلفة روحية داخل الخراب الكبير في نفوس الشخصيات الجميلة التي تلتقطها الكاميرا، ليبقى الشعر في فيلم «المريض الإنكليزي» خلاصاً قبل أن يكون معرفة، فمفرداته قبل أن تكون حضوراً على السيناريوهات

هي غياب روحي وقبل أن تكون امتلاء هي انتشار داخل أعماق ما في الذات. بلغة كلاسيكية رصينة وساحرة تتهادى أحداث «المريض الإنكليزي» الشائقة حيث يتابع المخرج مينغولا شرح ثنائية الفعل والكيونة مستعينا بثنائية الخير والشر، الحياة والموت، الجمال والقبح، الضوء والعممة، أي أن القبول بالقدر في نهاية المطاف يكون بتجاوز الثنائية لا بالبقاء بين شدقيها، ففي الربع الأخير من تحفته الرائعة هذه يلخص مينغولا أزمات الروح متحدثاً عن البداية والنهاية والفعل والتاريخ والزمان ويخلص إلى أن الغاية





إدارة ستيفن سبيلبيرغ في «لائحة شيندلر» ورشح لأوسكار أفضل ممثل مساعد، الأمر الذي مهد له الظهور لاحقاً في «برنامج الاستعراض» لروبيرت ريدفورد و «أيام غريبة» مغامرة كاثرين بيجلو الخيالية العلمية الأخاذة، واختياره من قبل المنتج الراحل البيرت بروكولي لاداء شخصية (جيمس بوند) التي رفضها بشدة قبل أن يستقر الرأي على بيرس بروسنان، وقد تابعناه أيضاً في الدور الصعب الذي أداه في فيلم «طفل ماكون» لبيتر غريناوي: والاقتراب السينمائي للسلسلة التلفزيونية الشهيرة «The Avengers» زمن الستينات مؤدياً دور المفتش الداهية (جون ستيد) الذي سبق لـ (باتريك ماكني) تجسيده، وتشاركه البطولة النجمة الاميركية أوما ثورمان في الشخصية نفسها التي لعبتها ديانا ريج.

- لدينا النجمة الفرنسية المتألقة جوليت بينوش التي حازت عن تجسيدها دور المريضة (هانا) أوسكار أفضل ممثلة مساعدة وتعتبر من ألمع الممثلات في الشاشة



الأوسكار للمرة الثالثة لمعبودته مارلين مونرو المرأة التي ألهمته وأضاءت حياته فاحبها بجنون، كما أثر رفع قبعته لكل أولئك الذين مهما اختلفت جنسياتهم وتباينت أفكارهم وتباعدت رؤاهم يلتقون عند سحر السينما السرمدية والقي أضوائها الخالدة. يُعرف عن زينتز . رغم إنتمائه للسينما الكلاسيكية التقليدية . تحمسه الشديد للأفكار الحديثة والمواهب الشابة الخلاقة الساعية لتقديم تناول عصري ومختلف للفيلم السينمائي، ولذا لا نستغرب حماسه وتبنيه لخريجين شبان ومنحهم فرصاً نادرة كما هي حال ميلوش فورمان حين أسند إليه إخراج تحفتين عاليتين هما : « طيران فوق عش الكوكو » و « أماديوس » ، وكذا الأمر ينطبق على فيليب كاوفمان «The Unbearable Lightness of being » وهيكاتور بابنكو « At play In The Fields of The lord » وأنطوني مينغويلا «المريض الإنكليزي»، والأخير هو من مواليد لندن في عام ١٩٥٤ وقد استهل حياته الفنية بالعمل في التلفزيون البريطاني وتحقيق مسلسلات أصابت نجاحاً كبيراً حين عرضها قبل اتجاهه إلى السينما مفتتحاً بفيلم جيد إجمالاً هو «بصدق، بعمق، بجنون» (١٩٩١) يحكي فيه عن امرأة شابة جوليت ستيفنسون، تعيش عذاب رحيل الموسيقى (الآن ريكمان) الذي أحبه بجنون، فيحضر إلى شقتها على شكل شبح بوسعه التحدث وممارسة الحب والغوص في خلفية العلاقة التي جمعتها ذات يوم مقدماً معالجة فلسفية رمزية ولغة سينمائية تعتمد إحياءات ومعطيات أشمل وأوفى من تلك التي تضمنها فيلمه الثاني «Mr. Wonderful» متطرقاً من جديد لقصة حب تجمع بين زوجين (مات ديلون وأنايبلا شيورا) يحبان بعضهما بعضاً منذ أيام الطفولة ينجحان في ترميم علاقتهما التي

تعرضت لمحنة في الآونة الأخيرة أدت إلى طلاقهما وقرار كل واحد منهما بدء أفق حياتي جديد ضمن هذه الحكاية التقليدية التي تلمع في محطات معينة بفعل بعض الحوارات العميقة التي لا تتجح في ترسيخ الدعائم المطلوبة نتيجة ضعف عام مهيم على ما نراه، وقد أدار مينغويلا في فيلمه الثالث «المريض الإنكليزي» مجموعة من الوجوه المعروفة نذكر منها:

- رالف فاينز الممثل البريطاني الشاب المنطلق بقوة منذ ظهر بدور الضابط الألماني السادي تحت

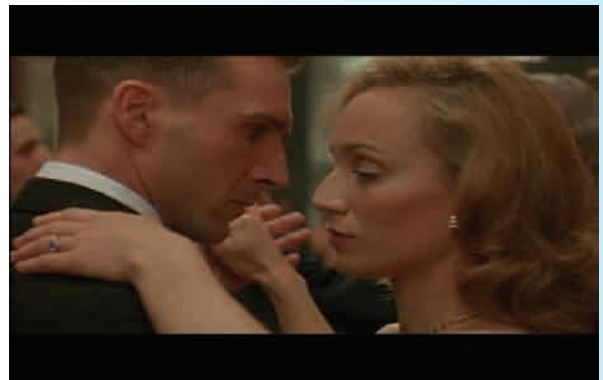


«المريض الإنكليزي» الذي يسير على خطين متوازيين: أولهما الدير الإيطالي الذي يضم أربع شخصيات رئيسية هي: مريض معذب من ماضيه تعرّض للحرق إثر إسقاط طائرته يحتضر على مرأى من الممرضة الناعمة هانا (جولييت بينوش) التي فقدت صديقها في انفجار لغم والتي تمتلكها قناعة بأن كل من يرتبط بها لا بد من أن يختار له القدر نهاية مأساوية، وكيب سينغ (نافين أندروز) كاسح الألغام الهندي الذي تشعر الممرضة الحاملة بالانجذاب نحو شخصيته الهادئة المتزنة المتحدرة من جنود حضارة عريقة، وأخيراً ديفيد كارافاجيو (ويليم دافو) وهو رجل كندي تعرّض للاعتقال من قبل النازيين الذين بتروا أصابع يديه بعد أن اعتبروه صلة وصل بين الحكومة الكندية والحلفاء، ونعلم لاحقاً بأنه قد أتى إلى الدير لتصفية حساب قديم مع المريض العاجز عن مغادرة سريره لقناعة مفادها بأنه كان يفشي أسراراً مهمة متعلقة بالمقاومة إلى أصدقائه الألمان، وكل ذلك في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. أما الخط الثاني وهو الأكثر جمالاً وسحراً فيدور في الصحراء وتتابع فيه تعرف الكونت الماشي (رالف فاينز) إلى كاترين كليفتون (كريستين سكوت توماس) المرأة البريطانية الساحرة المتزوجة بشخص لا تحبه وهو جيفري (كولين فيرث) الجاسوس الذي أرسلته الاستخبارات البريطانية لالتقاط صور جوية وجلب معلومات تتعلق بشمال أفريقيا، وحين

الفرنسية، حيث كان لإطلالتها الأولى في فيلم جان لوك غودار «أريد إلقاء التحية على ماري» أبلغ الأثر ومن يومها أصبحت القاسم المشترك الأعظم لدى كبار المخرجين: لوي مال، جان بول رابونو، كريستوف كيزلوفسكي، اندريه تيشينييه، ليو كاراكس وتابعتها في مجموعة كبيرة من الأفلام لعل أبرزها: «موعد»، «دماء سيئة»، «أزرق»، «الضرر»، «عشاق الجسر التاسع»، «الفارس على السطح»، «ريكة في نيويورك» وغيرها.

- نصل إلى البريطانية الحسنة كريستين سكوت توماس التي قدمت في «المريض الإنكليزي» دوراً لا ينسى وهي تنتقل من دور إلى آخر بمرونة لافتة وقدرة على إغناء الشخصية بإحساس جواني ولغة أداء رفيعة تذكر كثيراً بالية الممثلة ميريل ستريب وفهمها لأداء الشخصية منذ قراءتها على الورق وحتى خروجها إلى الواقع، ومن أفلامها اللافتة تذكر: «أربعة أعراس وجنازة» لمايك نيويل، «القمر المر» لرومان بولانسكي، «ريتشارد الثالث» لريتشارد لونكرين، «مهمة مستحيلة» لبرايان دي بالما، «ملائكة وحشرات» لفيليب هاس، «صيف لا يُنسى» للوسيان بينتيلي، «في عيون العالم» لباتريك براودي وسواها.

«كل ليلة أفقد فيها ألمي بالحب، أفاجا به موجوداً في الصباح».. هذه العبارة التي يفضي بها الكونت (الماشي) إلى حبيبته (كاترين كليفتون) في واحد من لقاءاتهما الجميلة تمثل خير تعبير للمقولة الأساسية في





لاحق لاينسى يتدليان من الحبال لمشاهدة الرسوم المنتشرة على جدران إحدى الكنائس، والذي ينتقل منه المخرج مينغيلا إلى الخط الآخر مصوراً قرار (كاثرين) بالانفصال عن الكونت (الماشي) إثر عودة زوجها من إثيوبيا ومدى الصدمة التي يتعرض لها مصرًا على الاحتفاظ بها ولو أدى ذلك إلى اكتشاف زوجها علاقتهما، الأمر الذي يصيبه بإحباط كبير وتشوش ذهني يؤديان لارتكابه حادث طائرة مروع وسط رمال الصحراء ينجم عنه مقتله وإصابة (كاثرين) التي كانت بصحبه بكسور عديدة وجروح خطيرة حيث ينقلها (الماشي) إلى داخل إحدى الكهوف مكتشفًا سوء وضعها الصحي وضرورة إسعافها واعدًا إيها بالعودة في أقرب وقت ممكن ومنظمًا رحلة مسير استمرت ثلاثة أيام قبل بلوغ نقطة القوات البريطانية التي اشتبهت بإسمه فاعتقلته بالرغم من توسلاته لهم بأهمية إنقاذ امرأة ستموت ما لم يعد إليها وأمرت بنقله بالقطار إلى بنغازي، فيهرب وينجح في إقناع الألمان بمساعدته على بلوغ الكهف الذي يصله متأخرا بعد أن فارقت الحياة تاركة له رسالة قرأتها له صديقتها المريضة (هانا) وجاء فيها: «عزيزي: إنني أنتظرك في الظلام. هل أمضيت يوماً أم أسبوعاً؟ انطفأت النار وأشعر ببرد شديد. كم أربغ بالخروج إلى الشمس لكنني بددت النور أثناء تفرجي على اللوحات. إننا نموت والإحبة حولنا. أناس عشنا معهم بألفة حقيقية. مخاوف أخفيهاها في كهف كهذا. أريد



يغادرها زوجها لأداء مهمته تحس نفسها مندفعة بقوة تجاه الكونت الغامض الذي شعرت منذ لقائهما الأول بأنه الرجل الذي أرسله القدر لتغيير مجرى حياتها، حيث يبرع المخرج (مينغيلا) في توصيف العلاقة الناشئة بين الاثنين والتركيز على تفاصيل دقيقة تمر من خلالها السمات العامة التي توطد مشاعر حب الواحد منهما تجاه الآخر، وفي أحيان كثيرة يختار اللقطة الثابتة المصحوبة بصمت مهيب أبلغ بكثير من كل ما يمكن أن يقال، ويبدو هذا جلياً في المشهد الذي يرقصان فيه حيث تتباعد عيونهما وتتجنبان اللقاء خشية افتضاح ما يدور في جوانباتها أمام زوجها وأصدقائه، وأيضاً في مشهد زيارتها له في منزله وتبادلتهما الجنس بروح ورهافة لم تصورها السينما من قبل، وكيف لنا أن ننسى مشهد العاصفة الصحراوية الذي تلا حادثة السيارة، إذ نتابعه يشرح لها عن (العجاج) في المغرب و(القبلي) في تونس والرياح الحمراء في انكلترا التي يتأتى عنها مطر أحمر يستقي لونه من دماء العاشقين.

شيئاً فشيئاً تتعمق الصلة بين المريض الذي هو (الكونت الماشي) والممرضة (هانا) التي تفتاحه بمشاعرها تجاه الهندي الذي تعلقت به حين فاجأها ذات يوم وهي تعزف على البيانو معلقة بان والدتها لطالما أخبرتها بان نغمات البيانو الذي تعزف عليه ستكون مدخل العلاقة بالشخص الذي سيتزوجها مستقبلاً، ونتابعهما في مشهد





### بطاقة «المريض الإنكليزي»

تمثيل: رالف فاينز، كريستين سكوت توماس، جوليت بينوش، ويليام دافو - نافين اندورز، كولين فيرث.  
 اخراج: أنطوني مينغيلا.  
 انتاج: سول زينتر.  
 سيناريو: أنطوني مينغيلا عن رواية «المريض الإنكليزي» لـ (مايكل أوندااتجي).  
 مدير التصوير: جون سيل.  
 مونتاج: والتر ميرش.  
 الادارة الفنية: ستيوارت كريغ.  
 تصميم الازياء: آن روث.  
 الموسيقى التصويرية: غابرييل يارد.  
 المنتجون المنفذون: بوب واينستاين، هارفي واينستاين، سكوت غرينستاين.  
 الشركة الموزعة: (ميراماكس).  
 الزمن: (١٦٠) دقيقة.

لكل ذلك أن يحضر في جسدي . أعرف بأنك حين ستعود ستحملني خارجاً إلى الريح. هذا كل ما أردته: أن أغادر المكان برفقتك. انطفأ النور وأنا أكتب لك في الظلام». وبعد أن تفرغ (هانا) من القراءة تنظر نحوه بحنان شديد ولا تفاجأ بأنه قد قضى حزناً، تتطلع إليه بحب واضح وابتسامة كبيرة ترتسم على وجهها كأنها الاحساس بتوحد مصيرهما معاً إذ خسرت هي الأخرى حبيبها الذي تلقى أمراً بالانتقال إلى فرنسا بعد أن انتهت الحرب، فأتى وداعهما يتفقان على اللقاء ذات يوم في الكنيسة نفسها التي شهدت رعشات القلب الأولى، ويختتم المخرج مينغيلا فيلمه التحفة بتقطيع مونتاجي مبهر نتابع فيه طائفة تحلق فوق رمال الصحراء الذهبية المنعكسة على (هانا) الحزينة المتوجهة إلى فلورنسا ووجهها يظهر ويختفي من بين تلك الأشجار الباسقة التي تعلوها فسحة السماء ويمر عبرها قرص الشمس.

